

## SUFISM AND ETHICS IN ISLAMIC CULTURE

**Asmaa Salem IERABI**<sup>1</sup>

Dr, Asmarya Islamic University, Libya

### **Abstract**

This study attempts to explain the concept of Sufism and its Islamic sources, and I chose for it the title: (Sufism and Ethics in Islamic Culture), as it began by defining Sufism, and how it originated from its early beginnings before mixing and contact with other cultures and to clarify its sources, the stages it passed through, and the criticism we live today. For this concept and its denial, it is necessary to go to research, study and analysis of the concept of Sufism in terms of definition, origin, development and its sources, and what has been reached is that Sufism cannot be understood unless it is placed in its historical context, because ideas do not arise or spread out of a vacuum; Therefore, it seemed to us, through perusal and research, that Sufism was established in the embrace of the Islamic environment, and then it has methods and schools that have their own characteristics and advantages. One of the requirements of this study is the use of a method that is an objective tool to reach the truth, and for this the historical and analytical methods were used, as well as the descriptive method.

**Key words:** Sufi, Nishapur, Hermits, Orientalists, Al-Tusi.

---

 <http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.17.25>

<sup>1</sup>  [as.ierabi@asmarya.edu.ly](mailto:as.ierabi@asmarya.edu.ly), <https://orcid.org/0000-0002-3422-7364>

## التصوف والأخلاق في الثقافة الإسلامية

أسماء سالم عربي

د، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا

### الملخص

تحاول هذه الدراسة بيان مفهوم التصوف ومصادره الإسلامية، وقد اخترت لها عنوان: (التصوف والأخلاق في الثقافة الإسلامية)، بحيث بدأت بتعريف التصوف، وكيفية نشأته منذ بداياته الأولى قبل الاختلاط والاحتكاك بالثقافات الأخرى وتوضيح مصادره، والمراحل التي مر بها، وما نعيشه اليوم من النقد لهذا المفهوم والتنكر له، فمن الضرورة بمكان التوجه للبحث والدراسة والتحليل لمفهوم التصوف من حيث التعريف والنشأة والتطور ومصادره، وما تمّ التوصل إليه أنّ التصوف لا يمكن فهمه إلا إذا وُضع في سياقه التاريخي، لأنّ الأفكار لا تنشأ ولا تنتشر من فراغ؛ لذا تراءى لنا من خلال الاطلاع والبحث أنّ التصوف قد تأسس في أحضان البيئة الإسلامية، ثم أصبحت له طرق ومدارس لها خصائصها وميزاتها، كما تناولت الدراسة ذكر بعض الشخصيات البارزة في التصوف الإسلامي التي أسهمت في تأسيس الطريق الصوفي وتعميقه في ثقافة المجتمع الإسلامي، وسارت على النهج الصحيح دون انحراف أو تضليل أو بدع، ومن متطلبات هذه الدراسة الاستعانة بمنهج يكون أداة موضوعية للوصول إلى الحقيقة، ولهذا تمت الاستعانة بالمنهج التاريخي والتحليلي وكذا المنهج الوصفي.

**الكلمات المفتاحية:** الصوفي، نيسابور، النسّاك، المستشرقون، الطوسي.

### المقدمة

إنّ التصوف ظاهرةً لصيقة بالمجتمع الإنساني، وقضية مرتبطة بفكر الإنسان، حظيت بدراسات واهتمامات عدد كبير من المفكرين، ولا يمكن لأيّ باحث في مجال تاريخ الفكر الإسلامي أو الحضارة الإسلامية أن يغفل الحديث عن الحركة الصوفية التي لعب رجالها دوراً كبيراً في ضبط المسار الإسلامي على الشريعة والدين الحنيف، كما حافظوا على التراث الإسلامي نقياً، باستثناء الطرق التي اتبعت منهجاً مخالفاً للشريعة كالحلولية والاتحادية، أو تلك التي صرفت التصوف عن المسار الصحيح كالشعوذة والسحر، وقد تطورت هذه الحركة واستمرت إلى يومنا هذا، واتخذت سلوكاً وطرقاً متعددة، وتأثرت بعدة عوامل إسلامية وأجنبية، لذا هو موضوع متشعب وجدير بالاهتمام والبحث والدراسة نظراً لكثرة الخلاف الذي تعدد بشأنه، والذي لا زال قائماً حتى عصرنا الراهن، لاسيما وإننا نعيش في عصرٍ كثر فيه الاختلاف، حتى كادت أن تكون السمة الغالبة بين المسلمين هي الخلافات والاتهامات والادعاءات المتبادلة بينهم، وما نعيشه اليوم من النقد لمفهوم التصوف، هو نتيجة لهذه الاتهامات وتلك التأويلات الخاطئة للتصوف على أنه بدعة ودخيل على الإسلام، فهناك من الأخلاقيات والسلوكيات في العبادة تحت مسمى التصوف، وهي بعيدة عنه وعن تعاليم الإسلام كل البعد، بل إنها قد شوّهت هذا العلم.

هذه المؤشرات كانت منطلقاً وسبباً دافعاً للبحث، لذلك كان لزاماً علينا الاطلاع والبحث والتحليل للتعرف على المفهوم الصحيح للتصوف من حيث تاريخ النشأة والتطور ومصادره، وهذه الدراسة ضمنّت أهم الموضوعات التي يحتاج إليها الدارسون للتصوف، وما يمكن الوصول إليه هو أنّ التصوف لا يمكن فهمه إلا إذا وُضع في سياقه التاريخي؛ لأنّ الأفكار لا تنشأ منفردة، ولا يمكن لها أن تنتشر من فراغ، وسعينا في هذه الدراسة إلى الإلمام برؤية بعض الشخصيات البارزة في التصوف الإسلامي السني التي أسهمت في تأسيس الطريق الصوفي وتعميقه، وسارت على المنهج الصحيح دون انحراف أو تضليل أو بدع، وحرصنا في ذلك على الاختصار الذي لا يخل بالمعنى، (لأنه -وكما هو معروف- التصوف مجال رحب وواسع ومتشعب) والخروج بنتائج لفهم التصوف، مع توضيح بعض المصطلحات الصوفية الغامضة كلما أمكن ذلك، وهدف البحث إلى تتبع الآراء والأقوال التي قبلت في أصل التصوف ونشأته ومصادره التي كانت ولا زالت محط الخلاف والتجادب بين المختصين والمتجادلين في هذا المجال.

### إشكالية الدراسة:

وتكمن إشكالية البحث في الإجابة عن عدة تساؤلات من بينها: ما هو أصل التصوف؟ ومن أين اشتق المصطلح؟ وهل نشأ في بيئة إسلامية خالصة؟ وهل كان له تأثير على ثقافة المجتمع الإسلامي؟ وكيف تسربت الأفكار المسيحية والفارسية واليونانية إلى التصوف؟ وماهي مصادر التصوف وما المراحل التي مر بها؟

### أهمية الدراسة:

تستدعي هذه الدراسة التعرف على التصوف في الثقافة الإسلامية من الأصل والنشأة وكذا المصادر، كونه حركة دينية ظهرت في أواخر القرن الثاني الهجري استمدت عوامل نشأتها من واقع بيئة المجتمع وتطوره، لذلك لا بد من دراسته ومعرفة حقيقته، والوقوف على ما ينبغي أن يكون عليه من الحق، وما يجب أن يبتعد عنه من الباطل.

### منهج الدراسة:

من متطلبات هذه الدراسة الاستعانة بمنهج يكون أداة موضوعية للوصول إلى الحقيقة، ولهذا تمت الاستعانة بالمنهجين التاريخي والتحليلي وكذا المنهج الوصفي.

### هيكلية الدراسة: تنقسم الدراسة إلى ثلاثة مباحث::

المبحث الأول: التصوف تعريفاً واشتقاقاً.

المبحث الثاني: التصوف والأخلاق في الثقافة الإسلامية.

والخاتمة التي أجملت فيها ما توصلت إليه الدراسة من النتائج والتوصيات.

### مصطلحات الدراسة.

الصوفي، نيسابور، النساك، المستشرقين، الطوسي.

## المبحث الأول: التصوف تعريفًا واشتقاقًا.

## - تعريف التصوف:

مما لا شكَّ أنّ التصوف مجالٌ رحب وعميق، ومؤلفاته لا حصر لها وشخصياته في كل عصر ومصر، لذلك فقد تضاربت الروايات وتعددت المفاهيم وتباينت حسب المواقف والأزمنة والظروف والآراء في التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً حول مفهوم التصوف وتسميته بهذا الاسم، ومن أين اشتقت كلمة تصوف، الأمر الذي نتج عنه الاختلاف في التعريف والاشتقاق، ورغم الانتشار وأهمية المكانة التي يحتلها مفهوم التصوف إلا أنّ الاتفاق حول تعريف محدد للتصوف ظل عصبياً، فكثرت الأقوال في التعريف والاشتقاق على آراء متقاربة ومذاهب شتى، كل منها يشير إلى جانب رئيسي في التصوف، منها الصفاء والصفوة والصفوارة و صوفيا (الشيبي، 1997م، صفحة 7) وغيرها على نحو ما سيتم ذكرها، فكانت هذه أول إشكالية تثار حول التصوف، وهي مشكلة قديمة أثارها أبو نصر السراج في كتابه (اللمع) "الملقب بالطوسي بطاوس الفقراء وفقه علوم الشريعة وهو شخصية من الشخصيات الزاهدة وشيخ الصوفية" (الطوسي، 1960م، الصفحات 13-14)، وكذلك تناولها القشيري في رسالته الشهيرة حول التصوف (الرسالة القشيرية)، "وهو علامة في الفقه والحديث وعلم التصوف، يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على المذهب الشافعي" (خلكان، 2013م، الصفحات 205-207) ومن بعدهم توالت التأليف العديدة في مفهوم التصوف بكل جوانبه في مؤلفات ابن سينا والغزالي وابن خلدون، وبحث فيه المستشرقون أمثال نيكلسون وماسينيون وغيرهم، كما وقع فيه الجدل بين الفقهاء وعلماء الكلام، ولسنا بصدد ذكر كل ما قيل من الآراء ومناقشتها، وإنما نكتفي ببعضها لأنّ هذه الإشكالية لا تحدها ورقات محدودة، وإنما تحتاج إلى نقاش مطوّل ودراسة مستفيضة حول التصوف بوصفه مرجعية ثقافية ودينية وكذلك أخلاقية، وهذا يعطينا حقيفة واضحة، وهي أنّ التصوف موضوعٌ تاريخي عميق ومتشعب في الكثير من جوانبه وقضاياها، وفي هذا السياق يمكننا أن نوضح دلالات المصطلحات التصوفية والمتصوفة والصوفي من الجانبين اللغوي والاصطلاحي.

جاء مصطلح التصوف في معاجم اللغة تحت مادة (صوف) وورد في لسان العرب "الصوف للشاه والصوفة أخص منه" (منظور، 1997م، صفحة 88) ويقال: كبش صاف وأصوف و صوفاني بالضم وهي بهاء: أي كثير الصوف (أبيدي، دبت، صفحة 1065)، "ويقال الصوف للواحدة صوفة ويصغر صوفية وفي الأساس فلان يلبس الصوف" (الزبيدي، 1966م، صفحة 169) وأول ما أطلق مصطلح صوفي على المسلمين الزهاد الذين ارتدوا الملابس الصوفية الخشنة ومنها جاءت التسمية، فكانت هذه أول التفسيرات وإن كان أشهرها وأكثرها قبولاً عند الكثير من الباحثين في القديم على نحو ما سيتقدم، يرى الإمام الطوسي (ت 378هـ) وهو أول مؤرخ للتصوف وصاحب كتاب اللمع، إن تسمية التصوف نسبة للبسة التي كانوا يلبسونها، ألا وهو الصوف.

واستناداً على ما سبق فإنّ الأمر لم يقف عند هذا الحد فهناك آراء أخرى وتفسيرات لأصل كلمة التصوف، وأغلبها انطلقت من أنّ التصوف يعود إلى لبس الصوف، وإنّ رأى بعضهم كالإمام القشيري (ت 465هـ) -وهو من كبار أئمة الشافعية- في رسالته أنّ هذه التسمية رمزية وليس لها قياس في العربية ولا اشتقاق، وإنما أطلقت عليهم لتمييزهم عن أهل البدع ولم يختصوا بلبس الصوف، فقد لبسه الصوفي وغير الصوفي، وإنما سُموا صوفية لإخلاصهم إلى الله بصدق الاقتدار والتوجه إليه "هم المقربون المتصوفون بالإحسان في الخبر الصحيح" (القشيري، 2000م، صفحة 36)، ويفي القشيري نسبة التصوف إلى الصوف كما نفى نسبته إلى الصفا، وقد اختلف عدد كبير في أصل تسمية التصوف وفي أصل اشتقاقه، فالإمام الطوسي يؤيد نسبته إلى الصوف وهو اللبسة الغالبة على هؤلاء، كما أنه لباس دلّ على التواضع، وكان يرتديه الأنبياء، ثم أطلق على الزهاد لتعلقهم بالله وحده، "لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصدّيقين وشعار المساكين المنتسكين" (الطوسي، 1960م، صفحة 41)، ويعنى به لبس الصوف أي التنسك والزهد في متاع الدنيا والتوجه إلى الآخرة، وقد عُرف على هؤلاء الزهاد والنسك لبس الصوف لأنه لا يُبلى ولا يذبل، فالتصوف وفق هذا التعريف هو الزهد والتنسك والعبادة، في حين يرجعه بعضهم إلى الصفة وهم صفوة أهل الصفة بالمسجد النبوي الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسموا بذلك لاتصافهم بكل الصفات التي يمكن أن تكون سبباً لهذه التسمية، وهناك من يقول أنه من الصف ويقصد به القوم الذين يجتهدون في عبادتهم لله بصفاء القلب وهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، وقيل إنّ الصوفية ينتسبون إلى الصفاء لأنهم يسعون بصفاء قلوبهم للتقرب إلى الله عز وجل، "وسُميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها وقلوبها ومعاملتها لله" (الكلاباذي، 1933م، صفحة 6)، ولأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس، إنما لبسوا لستر العورة فترحروا بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف (الكلاباذي، 1933م، صفحة 6)، ويرى الكلاباذي أنّ هذه كلها أحوال أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد نسبة التصوف إلى الصوف باستقامة اللفظ وصحة العبارة، أما تعريف الصوفي فيقول بشر بن الحارث: بأنه "هو من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته" (الكلاباذي،

1933م، صفحة 5)، وإلى جانب ذلك هناك من رد نسبته إلى الصوفانية بالضم بقله، وهي نبته تنبت في الصحراء معروفة زغباء صغيرة (منظور، 1997م، صفحة 88) وينظر كذلك (الزبيدي، 1966م، صفحة 170)، وقد كانت طعام بعض الصوفية الذين زهدوا في الطعام واقتصروا في طعامهم على نبتة الصوفانية، وهناك من يقول بأنه من الصفاتية وهي فرقة إسلامية من متبني الصفات.

ويقول الشيخ أحمد الزروق: "التصوف إصلاح القلوب وإفراؤها لله تعالى عما سواه، وأما الفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام، وأما علم الأصول والتوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الايمان بالإيقان، وقد حدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع، كلها لصدق التوجه إلى الله"، فمن رأى فيه أنه "ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك والتأليف والتعاطف" (السلمي، 1986م، صفحة 340)، وعرفه الشلبي بقوله: "تسليم تصفية القلوب، لعلام الغيوب" (الاصفهانى، حلية الأولياء وطبقات الاصفياء، 1988م، صفحة 23) وسئل الجنيد عن التصوف فقال: "هو تصفية القلوب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية... والتعلق بعلم الحقيقة... والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشريعة" (الكلاباذي، 1993م، الصفحات 19-20) وسئل السرى السقطي فقال: "هو اسم جامع لثلاثة معان، وهو لا يظفيء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن ينقصه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محام الله" (الحنبلي، صفحة 128).

ومما سبق ذكره تبين اقتران تعريف التصوف بالزهد، ثم تطور وأصبح له شخصياته وطرقه التي تنفرد بالضوابط، وتفرض سلوكاً خاصاً بها، وأما الصوفية والمتصوفة فقد وقع عليها ما وقع على التصوف من حيث التعريف، فهي أيضاً مصطلح مشتق من صفاء القلب والنفس، ومأخوذة من لبس الصوف الذي كان ظاهر الأنبياء، أو من صفاء المعاملة مع الله فهي أخلاق وتمسك وتعبد لله وبالله، وليس برقص وجذب أو حلول واتحاد وإنما أعمق وأظهر من ذلك، هو حالة حب بين النفس وخالقها، والتصافي ما هو بينك وبين الله خالك، هو الحب اللامحدود لله والرضا بأوامره ونواهيه، هو تزكية النفس والارتقاء بها في محبة الله والتقرب إليه لنيل مرضاته، يقول الإمام السيوطي: "أنّ الصوفية هم أهل الله وخاصته، بهم تنزل رحمته وينزل الغيث بدعائهم فرضي الله عنهم، ورضي الله عنا بهم"، وفي المقابل هناك من العلماء والمستشرقين من يرجع أصل كلمة التصوف أو الصوفي إلى صلتها بالكلمة اليونانية سوفيا، وهناك من جعل التصوف بمعنى الأخلاق أي أنّ التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء (المهدي، 1993م، صفحة 62، 80)، وفي تحديد لفظ الصوفي ولبسه وسلوكه قد اختلفوا مثلما اختلفوا في تعريف التصوف، فقد جاء في التعرف للكلاباذي عن رأي الحارث الحافي أنّ الصوفي من صفا قلبه، ورأي يقول أنه من صفت معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته، وقيل أيضاً أنه هو الذي يملك ولا يملك، يعني به الذي لا يسترقه الطمع، وقال إبراهيم الخواص (ت291هـ): الصوفي اسم يغطي به عن الناس إلا أهل الدراية وقليل ما هم (الكلاباذي، 1993م، الصفحات 10-12؛ الكلاباذي، 1993م)، وسئل أبو علي الروذباري (ت322هـ) عن الصوفي فقال: من لبس الصوف على الصفاء، وسلك طريق المصطفى، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا على القفا (البغدادي، دت، صفحة 331)، ووصف عبد القادر الجيلاني وهو أحد رجال الطرق الصوفية أنّ الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة الكتاب والسنة (الجيلاني، 1983م، صفحة 256)، ويرى السهروردي أنّ الصوفي هو من يضع الأشياء في مواضعها ويدير الأوقات والأحوال، كلها بالعلم يقيم الخلق مقامهم ويقوم أمر الحق مقامه، ويستتر ما ينبغي أن يستتر ويظهر ما ينبغي أن يظهر ويأتي بالأمر من مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص (السهروردي ع، 1966م، صفحة 78).

وقد سئل الحلاج علي الصليب، ما التصوف؟ فقال: أهون مرقة منه ما تراه... وقيل لفاطمة الأموية سليله أي (الحلاج) عن التصوف، فقال: ما أنا فيه، والله ما فرقت بين نعمه وبلواه ساعة قط... وسأل بندار بن الحسين الشيرازي وهو أحد علماء الكلام الأشاعرة، سأل الحلاج ما التصوف؟ فقال ابتداءه ما تراه (في إشارة إلى ما هو عليه) وانتهاءه تراه غداً... وقال الشلبي ليس التصوف إلا بذل النفس (ماسينيون، 2004م، الصفحات 506-507).

### اشتقاق مصطلح التصوف.

أثيرت وطرحت تساؤلات كثيرة في اشتقاق المصطلح، كما حدث الأمر في تعريفه فهناك من حاول أن يتوصل إلى جذوره العميقة عند صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعضهم حاول أن يوصل بينه وبين معطيات الفلسفة الإسلامية وما صاحبها من مؤثرات أجنبية متعددة الروافد (الجنابي، 2008م، صفحة 12) واختلف فيه الباحثون والصوفية أنفسهم، فمن أين اشتقت لفظة التصوف؟ وكيف كان اشتقاقه؟ يذكر الشيخ أحمد زروق الفاسي خمس حقائق حول اشتقاق المفهوم هي:-

1- أن التصوف من الصوفة؛ لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير لها.

- 2- أن التصوف من صوفة القفا للينها (لينة)، فالصوفي هين لئين.
- 3- أن التصوف من الصفة، إذ جعلته اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة.
- 4- أن التصوف من الصفاء، وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله:  
تنازغ الناس في الصوف واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصوف.  
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صاف فصوفي حتى سمي الصوفي.
- 5- أن التصوف منقول من الصفة، لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف، قال الله تعالى: (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)، وهذا هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه (زروق، 2005م، صفحة 24)، في حين يذكر الأصفهاني أربع حقائق أوجبها اللغة يتفق في بعض منها مع الشيخ الزروق رحمه الله وهي:-
- 1- أن التصوف من الصوفانة، وهي نبتة بقلة صغيرة.
- 2- أن التصوف من صوفة، وهي قبيلة كانت من الدهر الأول تخدم الكعبة.
- 3- أن التصوف من صوفة القفا.
- 4- أن التصوف من الصوف المعروف على ظهور الضأن (الأصفهاني، حلبة الاولياء، 1996م، الصفحات 17-18). وفي المقابل نرى رأياً آخر يضيف لاشتقاق لفظة الصوف أصلاً آخر: "إن اشتقاق الصوفي من الصوف بمعنى أن الصوفي من حيث الروحانية يعتبر في الصوف الأول بين يدي الله تعالى أو لاتصاله به عز وجل" (الزين، 1993م، صفحة 19)، وهكذا اختلفت الآراء كثيراً في أصل اشتقاقه ونسبته، وإن كانت أغلب الآراء اتفقت على أنه من الصوف؛ لأن ذلك يساعد على قواعد الاشتقاق الذي يعني به الزهد والعبادة والتنسك، وهو شعار موجود منذ قديم الزمان في الدين، ويتضح مما ذكر إن أرجح الأقوال وأقربها هو نسبته إلى الصوف فيقال: "تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص...فنسبوا إلى ظاهر اللبسة، وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم" (السهروردي، 1289م، صفحة 293)، وفي مقابل هذه الآراء هناك من يصرح بأن التصوف لا اشتقاق له في اللغة، يقول القشيري: "وليس يشهد لهذا الاسم من حيث اللغة قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب" (القشيري، 2000م، الصفحات 550-551)، وقال الهجويري: "واشتقاق الاسم لا يصح على مقتضى اللغة، من أي معنى؛ لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس يشق منه، وهم يشتقون الشيء من شيء مجانس له، وكل ما هو كائن ضد الصفاء، ولا يشق من ضده، وهذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله ولا يحتاج إلى عبارة" (الهجويري، 1974م، صفحة 230)، ويرى عبد القادر الجيلاني "أن التصوف مشتق من الصفاء أو من لبس الصوف...والتصوف يكون بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلوب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل" (الجيلاني، 1983م، صفحة 115)، "وأطلق لفظ الصوفي والمتصوف بادئ الأمر مرادفاً للزاهد والعابد والفقير، ولم يكن لهذه الألفاظ معنى يزيد على شدة العناية بأمر الدين ومراعاة أحكام الشريعة، فإن الفقر والزهد ولبس الصوف مظهر ذلك" (عبدالرازق، 2019م، صفحة 56)، كما اختلف مؤرخو الأدب في وجه اشتقاق كلمات الصوفية والصوفي والمتصوف، وقال الصوفية أنفسهم إنها مشتقة من الصفاء، وأن الصوفي رجل صافاه الله، فهو رجل صوفي (فعل ماضي مبني للمجهول) فهو صوفي، وزعم بعض المستشرقين أن كلمة صوفية تعريب لكلمة سوفيا اليونانية التي يعني بها الحكمة، إلا أن جمهور الباحثين قديماً وحديثاً أجمعوا على أن كلمة الصوفية مشتقة من الصوف، وكان هو اللباس الغالب على الزهاد والعباد (فروخ، 1979م، صفحة 470).

## المبحث الثاني: التصوف والأخلاق في الثقافة الإسلامية

## أولاً: التصوف الإسلامي نشأته وتطوره:

تضاربت نظريات الكتاب ومؤرخو التصوف، وتناقضت أقوالهم في مسألة أصل التصوف ونشأته، فذهبوا فيها مذاهب مختلفة جاءت على أربعة أوجه؛ فمن قائل أن التصوف حركة فارسية غير إسلامية دخيلة على الإسلام والمسلمين، أو من الهند دخلت عن طريق الفرس، وجاءت كردة فعل ضد دين يرون أنه فرض على أهل فارس فرضاً، ومن قائل أنها مستمدة من المسيحية، وهي تحمل في ثناياها فكر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية والهرميسية، وهي أفكار كانت منتشرة في مصر والشام عند الفتح الإسلامي، ومن قائل أن التصوف في أدواره الأولى إسلاميٌ بحث يمكن الرجوع به إلى تعاليم الإسلام (عفيفي، 1947م) "إلا أن بعض الدراسات طوت هذه الظنون وبينت أن التصوف نما وترعرع على أرض الإسلام بصفته روحاً من روحه وكلمة من كلمته، وأن التجربة بزغت وارتقت بالدراسة المتواصلة للقرآن مستقيه منه مصطلحاتها ومفاهيمها" (أندرية، 2003م، صفحة 21) ويذكر مؤرخو التصوف أنه نشأ أول الأمر في أحضان الكتاب والسنة على صورة الزهد، ويعود في حقيقته إلى مبادئ إسلامية سامية تمسك بها سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن تبعهم في ذلك، وقد حدد ابن خلدون تلك المبادئ في العكوف على العبادة والانتقطاع إلى الله تعالى والابتعاد عن مباحج الدنيا وزينتها والزهد في الحياة والانفراد عن الخلق والعزلة للعبادة، وهو ما كان عليه الصحابة والسلف الصالح، وعندما زاد الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، جنح الناس وانحرف الكثير، فاخصت المقبولون على الحياة الروحية والعبادة باسم الصوفية والمتصوفة (خلدون، د.ب، صفحة 467)، وظهرت حركة التصوف في أواخر القرن الثاني الهجري وانتشرت في العالم الإسلامي وتطورت إبان القرن الثالث الهجري بوصفها نزعات فردية تدعو إلى الزهد والتقشف وشدة العبادة، نتيجة لعدة ظروف فرضت ذلك، ومنذ مطلع العصر العباسي بدأ الزهد ينقلب تصوفاً واضحاً ثم تطور بعد ذلك وانقسم وتشعب، حتى صار طوائف عرفت بصوفية السنة وصوفية الشيعة وصوفية الفلسفة، وطرقاً متنوعة عرفت باسم الطرق الصوفية، كالشاذلية التي تُسببت إلى أبي الحسن الشاذلي والقادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، والسنوسية إلى محمد بن علي السنوسي وغيرها، وشكل بذلك جزءاً أساسياً من الثقافة الإسلامية، وبشكل عام فهو يشكل أيضاً جزءاً أساسياً في كل الثقافات وبصورة متفاوتة، ولم يقتصر أمره على أنه ظاهرة في الثقافة الإسلامية خاصة، بل إن جذوره تمتد إلى فكر ديني آخر، فهناك من المستشرقين في بداية الأمر من ربطه بالثقافة المسيحية والهندية والفارسية والفلسفة اليونانية أمثال نيكولسون، في المقابل هناك من رفض أن يكون أصل التصوف غير إسلامي تذكر على سبيل ذلك ماسنيون، ويرده إلى أصوله الإسلامية (الكتاب والسنة)، ونتيجة لذلك كانت النظرة إليه نظرة يشوبها الشك على اعتبار أنه (دخيل على الإسلام). وأن الدارس لحركة التصوف ونشأتها يجب أن يفرق بين أمرين: التصوف فكرة أو عقيدة بما لا يخالف أحكام الشريعة، فهو منهج تربوي هدفه التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وطلب الرضا (حمادي، 1997م، الصفحات 18-19)، والتصوف كما يلاحظ في السلوك العملي لبعض المتصوفة من أتباع الطرق...الذين لا يفقهون شيئاً من الشريعة، ليس له علاقة بحقيقة التصوف، ولا يمكن الحكم عليه من خلال أفعال هؤلاء العامة من الناس (موسى، 1988م، صفحة 67).

لقد برز التصوف في بداياته كظاهرة دينية لتربية المسلمين تربية ذوقية وجدانية تمسُّ القلب والروح قبل الجوارح، وارتبط بالمجاهدة والرياضة، وعليه فإن جذوره الأولى ظهرت مع بداية القرن الثاني الهجري عندما أصبح الأمر منكباً على الحياة الدنيا وملذاتها، ثم تطور في القرن الثالث والرابع الهجري وأصبح مصطلح متداولاً بين الفقهاء والعلماء، مما وقع فيه الجدل والتجاذب بين تعريفه وصحة نسبه إلى الإسلام، فكانت الاجتهادات والتعريفات متعددة، ولم تقف على تعريف واحد محدد للتصوف، ولم يقف تطور التصوف عند القرن الرابع الهجري، وإنما استمر حتى القرن الثامن وما بعده، فكثرت فيه الاصطلاحات وأدخلت عليه العديد من التغيرات؛ الأمر الذي انعكس على التصوف خاصة والثقافة الإسلامية عامة، وظهر التغيير في الآداب والأحوال والمقامات والسلوك والأخلاق، ويتمثل ذلك في أشهر أعلامه، أمثال ذي النون المصري، والمحاسبي والجنيد ورابعة العدوية (خفاجي، 1938م، صفحة 55، 53)، ووصل ذروته الدينية على أيدي هؤلاء الرجال ثم تطور واستكمل بحب إلهي متوهج يهز النفس ويغمرها... هذا التطور جمع ودون على يد أبي حامد الغزالي في مؤلفه إحياء علوم الدين، وبهذا بلغ التدين الإسلامي قمة لم يستطع أن يتجاوزها ولم يستطع الحفاظ عليها (أندرية، 2003م، صفحة 18)، ولكن علينا أن ننتيقن بأن التصوف عندما نشأ في بيئة إسلامية نشأ لتربية المسلمين العابدين لله تربية إسلامية صحيحة قائمة على المنهج السليم، منهج النبي صلى الله عليه وسلم وتأدية رسالة الهداية كما يقول الجوزي: "إن التصوف هو اتباع كل خلق سني والابتعاد عن كل خلق سيء" فالتصوف هو التشبع بالقيم الروحية التي تساعد الإنسان على التوازن النفسي ومواجهة الحياة بنفس مطمئنة راضية مرضية، والتمسك بالأخلاق والابتعاد عن الشهوات اتباعاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (البخاري، 2000م، صفحة 100).



## - مراحل التصوف ومصادره الإسلامية.

ينقسم تاريخ التصوف إلى عدة مراحل، حيث ظهر في بداياته بكونه حركة أو ظاهرة تسمى بالزهد شملت عصر الرسول والصحابة والتابعين، ولم يكن هناك شيء اسمه تصوف، وإنما كان الزهد هو النزعة الغالبة على المسلمين في ذلك العصر، ومنبع هذا الزهد ومصدره هي تعاليم الإسلام نفسه (الكتاب والسنة)، فالقرآن حثَّ على التقوى والورع والخشوع وترك الدنيا ومباهجها، وعظم من شأن الآخرة ودعا إلى العبادة وقيام الليل والصوم والتبئيل إلى غير ذلك مما هو في صميم التصوف (الزهد)، وهي مرحلة متفقة مع الفطرة السليمة ومبادئ الإسلام، واتفق عليها الباحثون واعتمدت على أنها المقياس الحقيقي للتصوف السني المعتدل، "أما المرحلة الثانية بدأت مع القرن الثالث الهجري، حيث تسرب إلى الفكر الإسلامي جمع من الثقافات والمعتقدات والأفكار نتيجة لحركة الترجمة" (الزريقي، 1997م، صفحة 21)، وبتوسع رقعة الإسلام وفتح العديد من الأمصار و الأبواب على مصراعها أمام المسلمين، فما كان منهم إلا أن بدأوا ينهلون المذات والشهوات والأموال والتطلع إلى ما عند الأمم الأخرى من نعيم وترف، الأمر الذي دفع الكثير من المسلمين إلى الانشغال عن الآخرة والإقبال على الدنيا، فبدأ الانحراف والابتعاد عن الطريق الصحيح السوي الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم، وفي هذه المرحلة تسربت ثقافات وعناصر غريبة إلى البيئة الإسلامية، وانتشرت الفلسفة اليونانية والأفلاطونية ودخلت في الإسلام ديانات أخرى كالنصرانية واليهودية والفارسية والزرادشتية وكذا الهندية، فتأثر التصوف بفلسفات وتصورات أخرى لا صلة لها بالإسلام مع ظهور ممارسات وسلوكيات لم تكن موجودة في المرحلة الأولى (حسين، 1994م، صفحة 13)، "واستمد التصوف من كل هذه المنابع، فلون عند البعض بالزرادشتية والفارسية وعند البعض بالنصرانية وبعضهم بالأفلاطونية المحدثة، ثم اختلطت هذه العناصر كلها ببعض فكانت طرقاً ونزعات مختلفة استمرت على مدى العصر" (الزريقي، 1997م، صفحة 22)، ولخطورة هذا الوضع على الإسلام والمسلمين، قامت الثورة الروحية في نفوس الاتقياء، وبدأ الإقبال على رياضة النفس بالتطهير والتزكية والمجاهدة على الطاعات وتصفيتهما من الرذائل واكتسابها الفضائل، هذه الثورة الروحية هي دعوة للرجوع إلى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام رضوان الله عليهم، دعوا فيها هؤلاء الاتقياء (الصوفية) إلى الالتزام بمبادئ الدين وجعل الآخرة هي الهدف الأسمى لحياة المسلمين، ولكن مع هذا الالتزام والعودة لإحياء الدين انبثقت المرحلة الثالثة للتصوف التي بدأت مع القرن الثامن تقريباً، سيطرت على التصوف حركة التقليد وكثرة الانقسامات وتعددت الطرق وشاع الارتزاق باسم العبادة والدين وأصبحت الخوارق والكرامات هي المقياس للتصوف وليس صدق العبادة والالتزام بالشريعة (حسين، 1994م، صفحة 13).

وبناءً عليه فإنَّ الدارس لتاريخ التصوف يرى أنَّ مصادره على مذهبين، الأول: أنَّ التصوف أجنبي دخيل على الإسلام في أصله ونشأته؛ لذلك يرى هذا المذهب أنَّ التصوف بدعة وضلالة وانحراف عن العقيدة، بينما المذهب الثاني يرى أنَّ التصوف إسلامي خالص في مصادره ونشأته؛ ولكنه تلبس بالفلسفة فأصبح على نوعين، تصوف إسلامي سني مقيد بالكتاب والسنة قرين الزهد تمثله عدة شخصيات، أبرزها البلخي والمحاسبي وبشر الحافي والكرخي وذو النون المصري والغزالي وإمام الحرمين ابن القيم، وتصوف فلسفي مغال مقيد بالحلل والالاتحاد العام ووحدة الوجود، وقد التصق بشخصية الحلاج والبسطامي والسهورودي، هذا التصوف امتزج مع الزرادشتية والهرمسية واستمد قوته من المصادر الخارجية، ويختلف تماماً مع التصوف السني المقيد بالكتاب والسنة، لأنَّ التصوف الفلسفي يؤمن بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، وبوجه عام فإنَّ مصادر تاريخ التصوف الإسلامي نصَّ على احتمالية أنَّ جذوره مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومن حياة الرسول والصحابة رضوان الله عليهم، فالتصوف في حقيقته (علم وعمل)، عمل بالقرآن وتطبيق السنة ظاهراً وباطناً، والتصوف الحق لا يشوبه أي بدع أو ضلالة ولا يتعارض مع كتاب الله وسنة الرسول، ولكن ما نراه اليوم من البدع والضلالة في العبادة من بعض الفرق تحت اسم التصوف هو فقدان الصفاء الباطن الذي لا علاقة له بالتصوف ولا بتعاليم الإسلام الصحيحة، بل هو بعيد عنه، كالذي يرى أنه مشتق من الكلمة اليونانية (صوفيا)، أو أنه هندي أو فارسي أو ماجوسي وغيرهم، وعليه فإنَّ التصوف الذي ينتهج منهج السنة والكتاب هو الدين المعتدل، والذي يبتعد عن منهج السنة والكتاب هو زندقة وضلال وبدع، ومع تطور هذا العلم كثرت أسماؤه وسُمي بعلم القلوب، وعلم الأسرار، وعلم المعارف، وعلم الباطن، وعلم الأحوال والمقامات، وعلم السلوك، وعلم الطريقة، وعلم المكاشفة (عبدالرازق، 2019م، صفحة 65).

- أما عن مدارس التصوف فإنَّ مصادر تاريخ الفكر الصوفي الإسلامي تقدم لنا مدرستين من أهم المدارس، بل هما الأساس الذي نشأ عليه التصوف السني، فقد اتخذتا من سيد المرسلين إماماً وقُدوة وطريقاً في السلوك، هما قلب التصوف ولسانه وبيانه، وقد تميزتا بالمعرفة الكاملة النابعة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ولم يعترفا بالتأثير الفلسفي هما:



## - مدرسة الإمام الجنيد ببغداد.

مؤسسها هو أبو القاسم محمد الجنيد القواريري أصله من نهاوند في إيران ولد ونشأ في بغداد، هذه المدرسة اتخذت من المساجد منابر لدعوتها، تخرج منها رجال تموج بهم كتب الأصول الصوفية، وهم شخصيات صوفية أسهمت في تأسيس الطريق الصوفي وتعميقه، وسارات على المنهج الصحيح دون انحراف أو تضليل أو بدع (الطوسي ا، 1960م)، اتسم أصحاب هذه المدرسة بنزعة الزهد والتصوف، مثال على ذلك: الحارث بن أسد المحاسبي وهو يعتبر من متصوفة مدرسة بغداد، وكذلك من بعده أبو حامد الغزالي.

## - مدرسة أبي نصر السراج الطوسي بنيسابور.

مؤسسها أبو نصر عبدالله الطوسي شيخ الصوفية، أحد مؤرخي التصوف، بل من أكبر المؤلفين فيه، يرى أنّ التصوف قائم على الدراية، و"حاول توحيد الفقه والتصوف، واعتبارها علماً واحداً، وردّ التصوف والفقه إلى علم الشريعة الواحد، واستمر في تأكيد قيام العلمين جنباً إلى جنب مستمداً ذلك من قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان الآية 20) فالنعمة الظاهرة هي فعل الطاعات، والنعمة الباطنة هي ما أنعم الله بها على القلب من الاحوال والمقامات" (شرف، 1980م، صفحة 22). اتخذت هذه المدرسة من الكتب منابر لبيان دعوتها ونشر علومها ومعارفها، وقد اقتفى إمامها باثر الطوسي الهجويري في (كشف المحجوب)، وتلمذ على يده أبو عبدالرحمن السلمي صاحب (طبقات الصوفية)، وتلمذ على يده أيضاً السلمي عبد الكريم الهوزان القشيري صاحب (الرسالة القشيرية)، وقد حاربت هذه المدارس بالحجة والبرهان كل انحراف وجنح فلسفي دخل التصوف الإسلامي وتسرب إليه، فكان الطوسي في مؤلفه اللمع كثير التحذير من الوقوع في أفكار الثقافات الدخيلة ولا سيما المتشبهين بأهل التصوف، يقول في مقدمة اللمع: "واعلم أن في زماننا هذا قد كثرت الخائضون في علوم هذه الطائفة، وقد كثرت أيضاً المتشبهون بأهل التصوف وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زخره وكلاماً ألفه وليس بمستحسن منه" (الطوسي ا، 1960م، صفحة 19)، فالتصوف شأنه في ذلك شأن كل العلوم والمعارف الإسلامية- امتزجت به ثقافات أجنبية يونانية وفارسية، وتسربت إليه عناصر غريبة كالزردشتية والهرمسية ومعتقدات أخرى "كالوقوع في وحدة الوجود... لأن الله تعالى مخالف للحوادث وأن أي اتصال به يوصف على أنه اتحاد بذات الله هو كفر وضلالة" (عفيفي، 1947م، الصفحات 102-103).

## - الأدوار والأثر الأجنبي في التصوف الإسلامي.

نشأ التصوف وترعرع في أحضان البيئة الإسلامية متصلاً بالشريعة (الكتاب والسنة)، فبدأ زهداً وورعاً، ثم تطور فأصبح تصوفاً يتخذ لنفسه نظاماً في العبادة، واستقر اتجاهها نفسياً بعيداً عن مجراه الأول وعن مبادئ الإسلام وثقافته في كثير من الأوجه، فالزهد والورع قديمان في البشر، وكان من بين العرب زهاد وعباد منذ عصر الجاهلية، وبعد ظهور الإسلام برز الزهد بروزاً واضحاً في العصر الأموي، ونتيجة لتترف الحياة جنح الناس إلى اللهو والترف والشهوات، وسرعان ما أحدث هذا الأمر ردة فعل عنيفة من أفراد البيئة الإسلامية أحدثت في نفوسهم ثورة روحية، حيث أوغلو في الزهد والعبادة والابتعاد عن مباحات الحياة وزخرفها، فبرز عدد من الشخصيات المشهورة من أهل الزهد والورع والصلاح أشهرها أبو الحسن البصري، وكان ذلك قبل نهاية العصر الأموي، ومع مطلع العصر العباسي أخذ الزهد ينقلب تصوفاً واضحاً، وأخذ أبو علي شقيق البلخي يتكلم في التوكل "وهو مقام من مقامات التصوف الإسلامي، ويقول بتفضيل العمل على العلم وشرطه مقام الإحسان" (الزوي، 2004م، صفحة 98)، ثم اشتهر من بعد البلخي ومعروف الكرخي، فكان هذا هو الدور الأول من أدوار التصوف، أما الدور الثاني فيتجسد في شخصية بشر الحافي وهؤلاء -بحسب ما ذكر- تصوفهم كان على نهج الرسول والصحابة ولم يخرج عن تعاليم الشريعة الإسلامية، ويقول الشيخ السراج الطوسي إنّ التصوف مقيد بأربعة أصول إسلامية هي: متابعة كتاب الله عزّ وجل، والافتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، والتخلُّق بأخلاق الصحابة والتابعين، والتأدب بأداب عباد الله الصالحين (الطوسي ا، 1960م). ثم يأتي في تاريخ التصوف الدور الثالث وهو الدور الذي كثرت فيه البدع والضلالة والرمز والشعوذة باسم التصوف ومن ممثلي هذا الدور الحسين بن منصور الحلاج، وهو من الشخصيات المتصوفة المعروفة، وقد تعمق في دراستها المستشرق الفرنسي ماسينيون، ومحمد بن عبد الجبار النفري (فروخ، 1979م، صفحة 472)، وعلى كلّ فإن للتصوف شخصياته في كل عصر ومصر، والتاريخي الإسلامي زاخر بشخصيات وعلماء انتسبوا للتصوف في كل بلاد العالم العربي والإسلامي، مثل شمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي والغزالي، وهؤلاء مزجوا التصوف بالكتاب والسنة، فكان تصوفهم تصوفاً معتدلاً يقوم على التمسك بشعائر الإسلام، والقيام بالعبادات على منهاج الزاهدين والخشوع على القلب وترك الإنسان مالا يعنيه من أمور العامة، كما يقوم على التواضع وخدمة الفقراء، وكانت غاية الغزالي من التصوف أن ينال الإنسان رضا الله في الدنيا وفي الآخرة، وبفضل الغزالي أصبح التصوف في الإسلام علماً مدوناً، بعد أن كان عبادة فقط يتلقى المتصوف أحكامه وآدابه بالرواية (فروخ، 1979م، صفحة 509).

### - الأثر الأجنبي في التصوف الإسلامي.

إن من أكثر الجدل الذي حدث في التصوف، عن نشأته ومن أي الأصول اشتق؟ وما هي مصادره؟ وكيف تسربت إليه الثقافات أو العناصر الأجنبية، أي ما مدى الأثر الأجنبي فيه؟ وعن هذه الجزئية طرح الدكتور عبد الرحمن بدوي سؤاله في مؤلفه: (تاريخ التصوف الإسلامي)، وهو: هل نشأ التصوف الإسلامي تحت مؤثرات أجنبية؟ حيث أثار هذا السؤال جدلاً واسعاً و مازال يطرح حتى يومنا هذا.

الحقيقة التي يعلمها الجميع من أهل الاختصاص في مجال التصوف أن الباحث الأوربي في القرن الماضي وأوائل هذا القرن قد اهتم ببيان ما سمي بالمؤثرات الأجنبية في نشأة التصوف الإسلامي وتطوره، وكانت دوافعهم إلى تلمس هذه المؤثرات كثيرة (بدوي، 1975م، صفحة 31)، وليس بالأمر السهل الوقوف على عامل بذاته بوصفه أثراً في التصوف، وساعد في ظهوره ونشأته منذُ العصور الأولى أن "المجتمع الإسلامي في تلك الفترة كان قد توافدت إليه العديد من الثقافات الأخرى والديانات الشرقية والفلسفات اليونانية والهندية"، إذ ليس هناك حقيقة واضحة في أمر التصوف سواء كان في أصل التصوف أو نشأته أو مصادره حتى من أهل التصوف أنفسهم أو مؤرخي التصوف، فالآراء ليست على اتفاق، فكل الذي توصل إليه هو ما كُتب عن التصوف في كتب ومصادر تاريخ الفكر الإسلامي أو ما دون المستشرقين في مؤلفاتهم، وأحياناً هي آراء لا يمكن أن يعتد بما جاء فيها على سبيل اليقين عند بعضهم، وذلك نظراً للتناقض والتضارب الحاصل فيها من قبل المستشرقين أنفسهم، ففي الكثير من الأحيان نجد بعض المستشرقين (نيكولسون و ثولك) يتراجع عن رأيه حول نشأته ومصادره أو حتى العوامل التي أثرت فيه، مما يدل على غموض التصوف في كثير من الأحيان، لذلك فالجميع ينظر إلى التصوف بحسب معطياته، ولكن لا سبيل إلى نكران ما توصل إليه هؤلاء (المستشرقين) وخاصة فيما يتعلق بمصادر التصوف ونشأته، ومن خلال اطلاعنا نحظ أن بعض الآراء كانت متقنة على أن التصوف نشأ بداية في بيئة إسلامية متمثلة في الزهد والورع، وكان على نهج النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة التابعين رضوان الله عليهم والمنهج الإسلامي وهو كذلك؛ ومع مرور الأيام وما جدَّ على المسلمين في واقع مجتمعاتهم، ونظراً للتفاعل الحضاري والثقافي، تسربت إليه عناصر ثقافية من بيئات أجنبية غريبة تمثلت في عدة عناصر يمكن أن نعدها عوامل خارجية ساعدت على الانحراف عن المسار الصحيح للتصوف، وفي هذا الصدد نكتفي بآراء بعض المستشرقين حول تأثير العنصر الأجنبي في التصوف في الأسطر التالية:-

- ذهب المستشرق (ثولك Tholuck) في مؤلفه (Sufismus Sive Theologia persica pantheistica) إلى أن أصل التصوف الإسلامي مأخوذ عن أصل ماجوسي (عفيفي ن.، 1947م، صفحة 5)؛ ولكنه عدل عن هذا الرأي وذهب في اعتقاده إلى أن زهد المسلمين كان نتيجة طبيعية لميل العرب إلى حياة العزلة، وأن التصوف وكل ما فيه من الأقوال يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم (عفيفي ن.، 1947م، صفحة 5).

- ثم نشر المستشرق (كريمير Alfred von kremer) في مؤلفه (الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية)، بأن التصوف الإسلامي في نهاية القرن الثالث الهجري -وهو العصر الذي برز فيه البسطامي والحلاج- قد تحول إلى حركة دينية مقيّدة بوحدة الوجود، وردّ كريمير التصوف إلى أصل هندي (كريمير، 1947م، صفحة 6).

- وعلى سبيل الذكر نرى المستشرق الفرنسي (ماسينيون Louis massignon) الذي يعتبر أظهر شخصية استشرقيه فرنسية اهتمت بدراسة التصوف الإسلامي وبشخصية الحلاج تحديداً، حيث نشر كتاب يتعلق بكل تفاصيل حياة الحلاج وهو يحمل اسم (Lapssion da'l Hallaj) أم الحلاج، ذكر أن مصادر التصوف أربعة هي، القرآن وهو أهمها، ثم العلوم العربية الإسلامية كالحديث والفقه والنحو وغيرها، أضف إليها مصطلحات المتكلمين الأوائل، واللغة العلمية التي تكونت في الشرق في القرون الستة المسيحية الأولى من لغات أخرى كاليونانية والفارسية وغيرها وأصبحت لغة العلم والفلسفة، ويميل ماسينيون إلى القول بأن التصوف الإسلامي قد أخذ نشأته من صميم الإسلام ذاته (عفيفي، 1947م).

- ويذكر المستشرق الانجليزي (نيكولسون Nicholson) في مؤلفه (أصل التصوف وتطوره) إلى تأثير التصوف الإسلامي في نشأته بالثقافة الهيلينية وخاصة الأفلاطونية المحدثة وكتابات ديونيسيوس والصانبة والسريانية وبعض المذاهب الهندية.

- وأما المستشرق (جولد سيهر Ignaz Goldziher) وهو يهودي الأصل من مؤسسي الدراسات الإسلامية الحديثة في أوروبا، يرى أن التصوف على تيارين هما: الأول تأثره بالعصر اليوناني وخاصة الأفلاطونية المحدثة والبوذية الهندية، أما التيار الثاني فهو قريب من روح الإسلام ومذهب أهل السنة، وإن كان متأثراً إلى حد كبير بالمسيحية (عفيفي، 1947م).

- بينما يرى المستشرق الألماني (هورتن Max Horten)، أن التصوف الإسلامي يستمد أصوله من الفكر الهندي، حيث كان متشعباً بالأفكار الهندية في القرن الثالث الهجري، وأن هذا الأثر أظهر ما يكون عند الحلاج، في حين يذكر (هرثمان

(Richard Hartmann) وهو مستشرق ألماني أيضاً (بدوي، موسوعة المستشرقين، 1993م)، أن التصوف الإسلامي مدين للفلسفة الهندية والفلسفة اليونانية وبخاصة الافلوطينية المحدثه وللقبالة اليهودية والرهبة المسيحية والغنوصية، ويرى أن أبا القاسم الجنيد هو من مزج التصوف بهذه العناصر (عفيفي ن.، 1947م).

وعلى الرغم من هذه الآراء والاعتقادات التي أشارت إلى الأثر الأجنبي في التصوف الاسلامي، إلا أن دراسات ماسينيون المعمّقة والدقيقة والمعدلة، أكدت على أن التصوف نما على أرض الإسلام ونشأ داخل البيئة الإسلامية وبموامل إسلامية داخلية قوية، فهو قد شق طريقه بالدراسة الدؤوبة والمتواصلة للقرآن.

### ثانياً: علاقة التصوف بالأخلاق في الثقافة الإسلامية.

للبيئة الإسلامية عاداتها وتقاليدها وأنماط سلوكها، وكان للعرب المسلمين ثقافتهم وقيمهم الخلقية الخاصة، التي أبقى الإسلام على بعضها بعد أن تم محاسنها، وصحح وجهتها، كما أبطل البعض الآخر، وظهر ذلك في الكتاب وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تجلّت خلاصة مكارم الأخلاق الإسلامية في أخلاق سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – أفعاله وأقواله- (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)، فكانت أخلاقه تجسيدا حياً لأخلاق القرآن (كان خلقه القرآن)، ومن أهم المميزات التي اتسمت بها الأخلاق الإسلامية تحرير الإنسان من رهن العبودية على مختلف الأصعدة بما فيها عبودية هوى النفس ذاتها (جعفر، 1968م، صفحة 239)، وقد بذل المسلمون جهوداً صادقة في سبيل تمثيل مكارم الأخلاق حتى اتسمت تلك الفترة بفترة البناء الأخلاقي الكامل على مستوى الفرد والجماعة، يقوم على التطبيق العملي الذي رسمه القرآن على الرغم من كل الصراعات والأحداث التي أحاطت بالبيئة الإسلامية في تلك الفترة، وثبت ذلك في عدد من السور القرآنية التي يمكن الرجوع إليها، كما في (سورة لقمان) ووصيته لابنه، و(سورة الفرقان) في تصوير عباد الرحمن، و(سورة النحل) التي اشتملت على عديد الوصايا كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والوفاء بالعهد وعدم الخضوع للريجات الدنيوية عوضاً عن عهد الله، لأن ما عند الله باق وما عند الإنسان زائل لا محالة، وغيرها من الوصايا في سور أخرى لا يسع المجال لذكرها، فالقرآن مليء وزاخر بالحكم والوصايا والقيم الأخلاقية النبوية.

### التصوف أخلاق دينية.

لمسنا مما سبق طبيعة المراحل التطورية التي مرت بها ظاهرة التصوف، وذلك بحسب تأثير العناصر الثقافية الأخرى التي تواردت عليها، حتى زعم البعض أن التصوف جاء من مصادر غير إسلامية، الأمر الذي أثار جدلاً واسعاً ووقع فيه الكثير من الخلاف، ولكن بحسب المعطيات التي ذكرت يظل أساس التصوف إسلامي يستمد أخلاقياته من الإسلام، فقد عُرف بأنه أخلاقي فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف، لذلك عُدَّ التصوف روح الإسلام، "لأن الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين وكذلك التصوف، وقال الكتاني: التصوف هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق: فقد زاد عليك في التصوف" (الجوزية، دت، صفحة 320)، فالتصوف إذاً أخلاق دينية لا يمكن فصله عن الأخلاق التي تمثل جزءاً من جوهره، لأن التصوف في أساسه يقوم على تنقية النفس وتطهيرها من الرذائل والأخلاق الذميمة بطريقة المجاهدة والرياضة سعياً للوصول بها إلى بلوغ مقام الرضا والإحسان.

وتقوم الحياة الصوفية على مقومات أخلاقية ثابتة مترابطة يجمعها رباط وثيق من التصوف والأخلاق من حيث الأعمال والأقوال، وقد رأينا ذلك واضحاً في أقوالهم وتصريحاتهم حول تعريفهم لمفهوم التصوف والصوفي، وإن كان الاختلاف في عدم تحديد تعريف واحد للتصوف إلا أن آراءهم أغلبها تدور حول النظام الأخلاقي المعين الذي ارتضاه كل واحد منهم، واتفقهم على "مجاهدة النفس وعدم الانشغال بالمطالب المادية والدنيوية والصبر والمعاناة، مع معرفة أصول الشريعة والتمسك بالأخلاق الحميدة والكف عن الحرام وكثرة العبادة والصلاة التي تقرب العبد من ربه سبحانه وتعالى ومخافة الله وطاعته ومحبته" (عبدالله، 2007م، صفحة 70).

لقد كان التصوف خلال القرون الأولى على هيئة زهد تمثل في تعلق القلب بالله دون سواه وطلب الرضا والنعيم والثواب في الآخرة، ثم أخذ منحى آخر في القرن الثالث والرابع الهجريين، حيث اتجهوا إلى الحديث عن الأخلاق والسلوك والنفس واضعين بذلك طريقاً للوصول بها أي النفس إلى أرقى المقامات والأحوال، لذلك نرى ارتباط مفهوم التصوف بالأخلاق في الثقافة الإسلامية منذ نشأته الأولى، ومن ثم احتلت الأخلاق ميدان التصوف، واتخذوا مصدراً مهماً لمعرفةهم وتجاربهم وبرهاناً على روحية دينهم وتمثيلاً قوياً لمبادئه الأخلاقية سلوكاً وعملاً، والناظر في مؤلفات الصوفية وكتبهم يلحظ أنها عبارة عن برامج ومنظومات أخلاقية وضعها أصحابها يودون أن يتجسد هذا البرنامج في كل من أهل للتصوف،

وبما أنّ التصوف قد تشعب وتعدد وانقسم أصحابه إلى طرق وطوائف متعددة فمن الصعب أن تكون قمة المثل الأخلاقية الصوفية في تناول جميع الناس، لأن كل طريقة صوفية لها خصوصية قبل كل شيء (جعفر، 1968م، صفحة 251)، ومن بين الفلاسفة المسلمين الذين عنوا بالأخلاق وارتبطت عندهم بالتصوف المعتدل نذكر منهم:

**ابن مسكويه:** في القرن الثالث والرابع الهجريين في كتابه تهذيب الأخلاق، وهو من دعاة الزهد ولكنه رفض حياة التقشف والحرمان والانقطاع عن الحياة ومتاعها، ويرى أن يكون الإنسان معتدلاً كريماً لنفسه ولغيره، فلا تسيطر الشهوات على القوة العاقلة فيه، وعليه أن يتناول من الغذاء ما يقوي به بدنه وما تستهيه نفسه مدام ذلك مشروعاً لا يعارض الشرع، ويلبس من اللباس ما لا ينم عن الشح والتقتير، وما يدل على كرم النفس وحفظ كرامة الإنسان وأرشد الناس إلى العمل الجميل والفعل الخير دون تكلف (المجيد، 1969م، صفحة 33)، ولا شك أن هذه النزعة الصوفية لمسكويه تتفق تماماً مع منطق الدين الإسلامي، الذي يقرر بوضوح أن المرء ينبغي ألا ينسى نصيبه من الدنيا.

**أبو حامد الغزالي:** في القرن الخامس الهجري في كتابه (إحياء علوم الدين) مزج الآراء العقلية في الأخلاق بنظرات صوفية معتمداً فيه على المصدر الأساسي وهو نصوص الشرع، فلم يكن تصوفه رهينة ولا مسيحية ولا إعراضاً عن الدنيا كلياً، ووضع طريقاً للمرء في تصوفه من حيث ملبسه ومأكله وكذا سكنه مستدلاً فيه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف - 7)، ومن الأحاديث قوله عليه السلام: " إذا أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس " (النووي، 2008م، صفحة 22)، ويعدّ الغزالي أفضل من مزج التصوف بالأخلاق وبالدين، ولم يكن لديه كما كان عند اليونان أو بعض أرباب الديانات الشرقية من كبح للشهوات وقتل للنزعة الفطرية التي فطر الله الإنسان عليها بما لا يتفق مع استمرار الحياة، وإنما التصوف عنده نوع من التربية الأخلاقية والاستعلاء بالغرائر والشهوات فلم يقرّ أو يتعمد كبحها، وإنما أقر وجودها بالقدر الذي يسمح به ويقرره الشرع (نصار، 1982م، صفحة 409).

إذاً من كل ما تقدم يتضح أنّ التصوف ظاهرة إنسانية وثقافة دينية ذات طابع روحي ديني لا تحده حدود مادية ولا زمانية أو مكانية، وليس وفقاً على أمة بعينها ولا على لغة أو جنس من الأجناس البشرية (عفيفي أ، 2020م، صفحة 52)، فقد كانت لكل جنس بشري طريقته الخاصة وأسلوبه الخاص في تصوفه وعلاقته بالله سبحانه وتعالى، ولكن يبقى التصوف في أساسه وبدائياته الأولى إسلامياً خالصاً نابعاً من شريعة الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

### الخاتمة وما توصل إليه البحث من النتائج.

- اختلفت الآراء حول التصوف من حيث مفهومه ومصادره وأصله وعوامل نشأته، وانقسمت انقسامات متعددة يمكن أن تعيد لنا النظرة في فهم حقيقة التصوف منذ ظهوره في صورة الزهد بأنه إسلامي خالص متصل بالشريعة (الكتاب والسنة)، ولكنه تعرض في مسيرته لأفكار وعناصر ومؤثرات أجنبية دخيلة انغرست فيه مما فتحت المجال للطعن فيه ونبذته وانتقاده.

- التصوف يقبل أن يكون ظاهرة أو حركة أو علماً ومفهوماً، ولكنه لا يمكن أن يكون عقيدة لأنه من روح العقيدة الإسلامية، وهو ظاهرة لأنه ثقافة ترسخت في البيئة الإسلامية أواخر القرن الثاني الهجري وتطورت مع القرن الثالث والرابع الهجريين، حيث أصبح مدرسة لها خصائصها وميزاتها، وحركة لأنه اتسم بمظاهر التدين النقي التي تميزت بالصفاء والنقاء (وعلم عملي يرتبط بالمجاهدة والرياضة والأحوال والمقامات يتجه إلى فهم العبادات فهماً باطنياً) له رجالته وشخصياته السنية، ومفهوم لأن له تعريفاً أجمع فيه العلماء والباحثون على أنه مشتق من الصفاء.

- ليس التصوف حركة وجدت في التاريخ الإسلامي فحسب، بل هو كيان فكري وثقافي موجود في ثقافة المجتمع الإسلامي وجزء لا يتجزأ من الإسلام ومن حياة المسلمين، وما حدث من النقد لهذه الحركة كان نتيجة الصورة السلبية والسنيّة التي عكستها (بعض) الطرق الصوفية، الأمر الذي ترتب عليه نظرة سلبية إلى التصوف تتلخص في كونه بدعاً وضلالة، وقد استمرت هذه النظرة وترسخت في الأذهان إلى يوم الناس هذا.

## قائمة المصادر والمراجع

## القرآن الكريم.

- ابن القيم الجوزية. (د.ت). مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن خلدون. (د.ت). مقدمة ابن خلدون. بيروت: مؤسسة الأعلمي.
- ابن خلكان. (2013م). وفيات الأعيان (المجلد 6، ج3). بيروت، لبنان: دار صادر.
- ابن عماد الحنبلي. (بلا تاريخ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. القاهرة: مكتبة القدس.
- ابن منظور. (1997م). لسان العرب (المجلد ط1). بيروت، لبنان: دار صادر.
- أبو العلا عفيفي. (2020م). التصوف الثورة الروحية في الإسلام. المملكة المتحدة: مؤسسة هندواي.
- أبو نصر السراج الطوسي. (1960م). اللمع (المجلد د.ط). (عبدالحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، المترجمون) مصر: دار الكتب الحديثة.
- أبو نعيم الأصفهاني. (1988م). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو نعيم الأصفهاني. (1996م). حلية الأولياء. بيروت: دار الفكر.
- أحمد بن حمادي. (1997م). حادي العقول إلى بلوغ المأمول (المجلد 1). (جمعة محمود الزريقي، المترجمون) طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.
- الإمام القشيري. (2000م). الرسالة القشيرية. دمشق: دار النعمان.
- البخاري. (2000م). صحيح الأدب المفرد (المجلد 2). بيروت، لبنان: دار الصديق.
- الخطيب البغدادي. (د.ت). تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الزبيدي. (1966م). تاج العروس. بيروت: دار صادر.
- السائح علي حسين. (1994م). لمحات من التصوف وتاريخه. طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية.
- السلمي. (1986م). طبقات الصوفية، السلمي. (نور الدين شريفة، المترجمون) القاهرة: مكتبة الخانجي.
- السهورودي. (1289م). عوارف المعارف. القاهرة.
- الشيخ أحمد زروق. (2005م). قواعد التصوف. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الغزالي. (بلا تاريخ). إحياء علوم الدين.
- الفيروز آبادي. (د.ت). القاموس المحيط. بيروت: دار الأرقام.
- الكلاباذي. (1933م). التعرف لمذهب أهل التصوف. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الكلاباذي. (1993م). التعرف على مذهب أهل التصوف. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الهجويري. (1974م). كشف المحجوب. (إسعاد عبد الهادي قنديل و أمين عبد المجيد بدوي، المترجمون) القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- تور أندريه. (2003م). التصوف الإسلامي. (عدنان عباس علي، المترجمون) كولونيا، ألمانيا: منشورات الجمل.
- تيسير بن موسى. (1988م). المجتمع الليبي في العهد العثماني. ليبيا، طرابلس: الدار العربية للكتاب.
- جمعة محمود الزريقي. (1997م). كتاب حادي العقول إلى بلوغ المأمول. طرابلس / ليبيا: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.
- سراج الدين الطوسي. (1960م). اللمع (المجلد د.ط). (عبد الحليم محمود وآخرون، المحرر) القاهرة، مصر: دار الكتب الحديثة.
- سميح عاطف الزين. (1993م). الصوفية في نظر الإسلام (المجلد 4). بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
- ظاهر عبد المجيد. (1969م). من الفلسفة الإسلامية. القاهرة: دار التأليف.
- عبد الرحمن بدوي. (1975م). تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني (المجلد 1). الكويت: وكالة المطبوعات.

- عبد الرحمن بدوي. (1993م). *موسوعة المستشرقين* (المجلد 3). بيروت: دار الملايين.
- عبد القادر الجيلاني. (1983م). *الفتح الرباني والفيض الرحماني*. بغداد: مكتبة الشرق الجديدة.
- عبد القاهر السهروردي. (1966م). *عوارف المعارف*. بيروت: دار الكتاب العربي .
- عبد المنعم خفاجي. (1938م). *الأدب في التراث الصوفي*. القاهرة: دار غريب.
- عمر فروخ. (1979م). *تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون*. بيروت: دار العلم للملايين.
- عيسى عبدالله. (2007م). *الفكر الإسلامي ودوره في بناء المعرفة*. بنغازي: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.
- فون كريم. (1947م). *الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية* (المجلد دط). (مصطفى طه بدر، المترجمون) بيروت: دار الفكر العربي.
- قيس كاظم الجنابي. (2008م). *التصوف الإسلامي في اتجاهاته الأدبية*. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- كامل مصطفى الشيبلي. (1997م). *صفحات مكثفة من تاريخ التصوف*. بيروت، لبنان: دار المناهل.
- لويس ماسينيون. (2004م). *آلام الحلاج: شهيد التصوف الإسلامي* (المجلد 1). (الحسين مصطفى حلاج، المترجمون) بيروت، لبنان: قدمس للنشر والتوزيع.
- ماسينيون ومصطفى عبدالرازق. (2019م). *التصوف، ماسينيون ومصطفى عبدالرازق*. القاهرة: آفاق.
- محمد جلال شرف. (1980م). *دراسات في التصوف الإسلامي*. بيروت: دار النهضة العربية.
- محمد عبدالستار نصار. (1982م). *دراسات في فلسفة الأخلاق* (المجلد 1). الكويت: دار القلم.
- محمد عقيل بن علي المهدي. (1993م). *المدخل إلى التصوف*. القاهرة: دار الحديث.
- محمد كمال إبراهيم جعفر. (1968م). *في الفلسفة والأخلاق*. الإسكندرية: دار الكتب الجامعية.
- ممدوح الزوبي. (2004م). *معجم الصوفية* (المجلد 1). بيروت: دار جيل.
- نيكولسون نقلها إلى العربية أبو العلا عفيفي. (1947م). *في التصوف الإسلامي وتاريخه*. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- يحيى بن شرف النووي. (2008م). *الأربعون النووية وتتمتها* (المجلد دت). (عمر عبدالجبار، المحرر) مكة، السعودية: مكتبة الاقتصاد.